الباب الخامس

النتائج والآثار

ويتضمن الموضوعات التالية:-

- **هل يتنصر الاستعمار دائماً**
- **الهوية الحضارية في كتابات ما بعد الاستعمار**
- **الرواية والاستعمار**
- **اللغة والاحتلال**
- **التبعية الفكرية للمستعمر**
- **تدميرالثقافة الإسلامية**
- **الآثار السياسية**
- **هيمنة نمط الحزب الواحد**
- **العسكريون وعسكرة السلطة**

obeikandl.com

obeikandl.com

للاستعمار آثارٌ سلبية وأخرى إيجابية على كلٍّ من المستعمَرات والدول المُستعْمرَة على حدٍّ سواءً، فقد حقق المستعمرون شيئًا من التنمية الاقتصادية للمستعمرات، فأدخلوا إليها طرق الزراعة والصناعة والعلوم الطبيّة الغربية، وفي الوقت نفسه، قامت القوى الاستعمارية باستغلال مستعمراتها واستفادت منها اقتصاديًا.

وفي عدد من المستعمرات، قامت القوى الحاكمة بتعطيل الهياكل الاقتصادية التقليدية وتغييرها، فقد ألزموا المستعمرات بإنتاج المواد الخام وشراء معظم السلع المصنّعة من الدول الحاكمة، وبهذه الطريقة، حطّم المستعمِرون الأنشطة التجارية والصناعية في المستعمرات ومع أن هناك نواحي إيجابيةً لربط المستعمرات بالنظام الاقتصادي الدولي، فإن شعوب تلك المستعمَرات فقدت القدرة على التحكم في مقدّراتها الاقتصادية،وبالإضافة إلى ذلك، قاد ارتفاع مستويات المعيشة والاستقرار السياسي إلى زيادة كبيرة في عدد السكان، الأمر الذي أدى إلى توقف التحسن في مستوى المعيشة وربما ساعد على تقهقره.

وقام النظام الاستعماريُّ بزيادة رقعة السيطرة السياسية للدول الأوروبية، ولكنه أدى في الوقت نفسه إلى تقليص عدد من الحروب

المحلية ووحّد تلك المناطق تحت مظلة دولة واحدة وأقامت القوى الحاكمة عددًا من المدارس الحديثة،وأدخلت النظام الديمقراطيّ في الحكم ولكن، في العديد من الحالات،لم يمنح المُستعمرون الشعوب التي استعمروها إلا قدرًا ضئيلاً من التدريب والإعداد من أجل الاستقلال، كما حاول عددٌ من الحكام فرض ثقافتهم على الشعوب المُستعمَرة، ويعتقد بعض المؤرخين أنّ الثقافة الغربية قد أفادت الشعوب المستعمَرة بطرق شتّى، لكن عددًا من الدول التي كانت مُستعمَرةً حاولت، بعد الاستقلال، إعادة إحياء ثقافتها وهويتها.

ولقد ساعد النظام الاستعماري الدول المحكومة، في ظهور الحركات القومية وظهور الشعور الوطني بين الشعوب المستعمَرة، وبذلك، كتب الاحتلال نهايته بنفسه وكان من النتائج غير المتوقعة لنهاية الاحتلال ان ظهرت حركات هجرة لعدد كبير من سكان المستعمرات إلى البلدان التي كانت تَستعمرها فهناك أعدادٌ من المهاجرين من شمال أفريقيا تعيش في فرنسا وأسهمت هذه الهجرات في خلق تباين عرقي وثقافي في البلدان الأوروبية التي كانت يومًا ما ذات طابع عرقي واحد.

ورغم ما يقال عن وجود آثار إيجابية للاستعمار الغربي إلا أن آثاره السلبية وكوارثه أكبر وأعظم،ولا توجد آثار إيجابية إنما هي مخلفات وفضلات نتجت عن استهلاك غربي في مناطق الاحتلال ولم تكن

الإنجازات التي يصفها البعض بالإيجابية بفعل هدف إنساني ومن أجل صالح البلد المحتل، وإنما كان بفعل دوافع خاصة بالاحتلال اقتضت تشييدها مصالحه الاقتصادية ولا يعقل أن يكون للاحتلال غرض إيجابي بينما هو قائم على التدمير والنهب والسلب وهناك قاعدة غير معلنة ولكنها عملية مضمونها إبقاء البلد المحتل دائماً أضعف من الاحتلال في كل شيء، وقد نجحت قوى الاحتلال الغربية في تطبيق هذه القاعدة.

فقد أدى الاحتلال الغربي لهدم قيم المجتمعات واستبدلها بقيمه وهى عملية تحويل رديئة للمجتمع من مستقل إلى تابع، ومن منتج إلى مستهلك وقامت القوى الاستعمارية باستغلال مستعمراتها واستفادت منها اقتصادياً وفي عدد من المستعمرات،قامت القوى الحاكمة بتعطيل الهياكل الاقتصادية التقليدية وتغييرها فقد ألزموا المستعمرات بإنتاج المواد الخام وشراء معظم السلع المصنَّعة من الدول الحاكمة وبهذه الطريقة، حطَّم المستعمِرون الأنشطة التجارية والصناعية في المستعمرات وفقدت شعوب تلك المستعمَرات القدرة على التحكم في مقدَّراتها الاقتصادية ومن مساوئ الاحتلال بروز ظاهرة الاستشراق التي ارتبطَت عضويًا بظاهرة الاستعمار؛ فلكل الدول الاستعمارية الغربية مؤسسات استشراقية فعندما فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها الدينية والسياسية في العصور الوسطى،عاد الأوروبيون مرة أخرى إلى

الشرق في ثوب الاستعمار،واتجهوا إلى دراسة كل شؤون البلاد الشرقية ليعرفوا مواطن القوة فيها فيقضوا عليها، ومواطن الضعف فيغتنموها.

وكان كثير من المستشرقين وما زالوا يعملون مستشارين لحكوماتهم في التخطيط لسياساتها الاستعمارية وكان المستشرقان البريطانيان ماكدونالد وجِبْ يعملان مستشاريْن لحكومتهما في تخطيط سياستها ضد المسلمين في شبه القارة الهندية وغيرها، وعمل ماسينيون مستشارًا للحكومة الفرنسية في تخطيط سياستها ضد المسلمين في شمال أفريقيا.

هل ينتصر المحتل دائماً ؟

هذه الأيام ونحن نرى السودان إلى مزيد من الشرذمة ومصر فى حالة عدم استقرار ومع كل أسف يبدو أن القوى الاستعمارية التي تتوافد على منطقتنا قرناً بعد قرن لم تُهزم ولا مرة بل تخرج دائماً مظفّرة وتتركنا ننتقل من سيء إلى أسوأ ولا يجب بأي حال من الأحوال اعتبار خروجها من الأراضي الأفريقية بفعل الثورات وضربات المقاومة نصراً مبيناً لنا فهي استطاعت في كل مرة للأسف الشديد أن تقتنص النصر من براثن هزيمتها أي أنها لم تخرج من الأراضي والبلدان التي احتلتها إلا بعد أن تكون قد حققت القسط الأكبر من أهدافها الاستعمارية المرحلية والمستقبلية، فليس من الضروري أبداً أن يقترن النصر الاستعماري ببقاء القوات المحتلة فوق أراضينا، فالعبرة دائماً بالنتائج المستقبلية.

لقد جاءت الحملات الاستعمارية الغربية إلى بلادنا منذ قرون لأغراض سياسية واقتصادية وثقافية معينة سبق توضيح بعضها ولو نظرنا إلى نتائجها لوجدنا أنها حققت معظم أهدافها المرجوة حتى بعد رحيل قواتها وكي لا نذهب بعيداً إلى القرون الغابرة لنبدأ بالاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ الذي دام حوالي مائة وثلاثين عاماً صحيح أن الثورة الجزائرية العظيمة قدمت أكثر من مليون ونصف المليون شهيد لطرد المستعمر الفرنسي وتمكنت في النهاية من تحرير التراب الجزائري من رجس وجوده العسكري لكن هل انتهى التأثير الاستعماري الفرنسي على الجزائر بعد التحرير؟ بالطبع لا لقد كان التحرير عسكرياً فقط أو اسمياً فالثقافة الفرنسية ما زالت هي المسيطرة في الجزائر بعد مرور خمسين عاماً على الثورة إلى حد أن الرئيس الجزائري لا يحلو له إلقاء خطبه إلا باللغة الفرنسية أحياناً أما الطبقة السياسية المسيطرة على البلاد فهي امتداد للتأثير الاستعماري الفرنسي، فهي في معظمها تتألف من فرانكوفونيين متشددين يمقتون اللغة العربية والثقافتين العربية والإسلامية ولا عجب أن وصف أحد الباحثين الجزائرين الطبقة المسيطرة في البلاد ببني باريس الذين يتحكمون فى أحفاد ابن باديس أحد قادة الثورة الجزائرية وسمعنا كتاباً جزائرين يتهمون بعض جنرالات الجيش الجزائري بأنهم طابور خامس أو امتداد للمستعمر الفرنسي الراحل خاصة وأن بعضهم خدم مع الفرنسيين أيام الاحتلال وقد لا

يختلف الأمر بالنسبة للكثير من الدول التي وصف المفكر التونسي هشام جعيط قادتها بأنهم ليسوا أكثر من وكلاء للقوى المهيمنة دولياً والأنكى من ذلك أن التقسيم الاستعماري للجزائر ما زال قائماً بعد مرور حوالي قرنين على الغزو الفرنسي للبلاد أليس هناك الآن المشكلة البربرية أو الأمازيجية التي تقض مضاجع الجزائر؟ ألم يتفاخر الرئيس الفرنسي الحالي جاك شيراك بوصف اللاعب الجزائري الشهير زين الدين زيدان عندما فازت فرنسا بكأس العالم بأنه لاعب قبائلي أي أمازيجي وليس جزائرياً وذلك في تأكيد منه على نجاح المخطط الاستعماري الفرنسي في تقسيم الجزائر على أسس عرقية وقبائلية؟ باختصار شديد فإن الاستعمار الفرنسي ما زال يجني ثمار احتلاله للجزائر بعد مرور مائة وأربعة وسبعين عاماً على الغزو.

أما الاستعمار العثماني للمنطقة العربية فقد يكون الأسوء لأنه لم يخرج من بلادنا بفعل ضربات المقاومة كما حصل في الجزائر بل سلمنا للفرنسيين والانجليز على طبق من ذهب بعد أن أنهكنا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً صحيح أن رجل أوروبا المريض هُزم أمام المستعمرين الأوروبيين في العقد الثاني من القرن العشرين لكنه لم يُهزم أمام العرب بل يمكن القول إنه خرج من ديارهم منتصراً ألا يكفي أنه تركنا أشبه بجثة هامدة على كل الأصعدة تقريباً جاهزة للنهش والتشريح كي يتقاسمها المتآمرون على الامبراطورية العثمانية؟

لقد أنهى الانجليز بالتعاون مع الفرنسيين والروس القبضة العثمانية على المنطقة العربية لكن ليس من أجل تخليص العرب من النير العثماني بل من أجل افتراس المنطقة وتقطيع أوصالها إرباً إرباً صحيح أن الدول العربية المنبثقة عن تقسيم سايكس بيكو استطاعت بعد سنوات أن تطرد المستعمرين البريطاني والفرنسي في العراق وسوريا ولبنان وشبه الجزيرة العربية والسودان ومصر والجزائر وغيرها، لكن بعد أن حقق المستعمر معظم غاياته التي تمثلت في تفكيك العالم العربي إلى دول ودويلات ومحميات متصارعة.

صحيح أن المستعمر قد رحل بعسكره لكن إرثه الاستعماري ما زال ماثلاً أمام أعيننا جميعاً يعذبنا ويؤرقنا يوماً بعد يوم. لقد قال تشيرتشل ذات مرة متفاخراً بانتصار بلاده حتى بعد رحيلها عن امبراطوريتها: لم نترك مستعمراتنا إلا بعد أن ورثنا لها ألف قنبلة موقوتة وقد تمثلت التركتان البريطانية والفرنسية في البلدان التي احتلوها في العالم العربي وآسيا وأفريقيا بالصراعات الحدودية الدامية التي ما زالت بعض البلدان تعاني منها شر معاناة حتى هذه اللحظة.

لقد ترك المستعمر نزاعاً حدودياً بين الدول تحول في أحيان كثيرة إلى حروب مدمرة هل يستطيع أحد أن ينكر أننا ما زلنا ندفع فاتورة التجزئة الأوروبية لبلداننا حتى هذا اليوم؟ أي نصر أكبر من هذا النصر الاستعماري علينا ؟ ومن سخريات القدر فإن هذا المستعمر خرج من

الباب ليعود من النافذة في بعض الدول العربية، فهو الذي يحكم من وراء الستار في بلدان عربية عدة وبرضى تام من أنظمتها وكأنه لم يكتف بما فعل بنا على مدى عقود من تفتيت وتجزئة وقمع وتخريب.

البعض يراهن هذه الأيام على المقاومتين العراقية والفلسطينية في إحباط المشاريع الاستعمارية الجديدة في المنطقة مع أن ذلك ليس مؤكداً تماماً لكن حتى لو افترضنا جدلاً أن المقاومة العراقية ستتمكن في النهاية من إخراج المستعمرالأمريكي من بلاد الرافدين فإن ذلك لن يكون نصراً كبيراً للعرب إذا ما قسناه بالنتائج التي ترتبت على الغزو أمريكا فيما لو خرجت ستترك العراق ممزقاً إلى أعراق وطوائف وجماعات متناحرة ربما تمتد عدواها إلى العديد من البلدان المجاورة التي تعاني أصلاً خللاً فادحاً في تركيب نسيجها الوطني هل هناك نصر أهم من هذا النصر بالنسبة لأمريكا وقوى الشر المتحالفة معها كإسرائيل وبريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية؟ انه نصر يفوق في أهميته الانتصار البريطاني الفرنسي في سايكس بيكو الأولى ولا عجب إن راح البعض، كما أسلفت، يتحدث عن سايكس بيكو جديدة أشد خطراً ووطأة على المنطقة إنهم قادمون هذه المرة كي يقسموا المُقسّم ويجزأوا المُجزأ.

والمشكلة الخطيرة دائماً أن إرث الاحتلال في المنطقة العربية يصبح، مقدساً أو منزلاً لا يجوز المساس به بأي حال من الأحوال فلو أن الثورات العربية التي طردت المحتلين في منتصف القرن الماضي وما

تلاه صححت الأوضاع الخطيرة التي خلفها المستعمر لتفائلنا خيراً بما قد تنجزه المقاومة العراقية أو الفلسطينية لكن الذي سيحدث أن الواقع الذي سيخلفه المحتل الأمريكي الجديد في بلاد الرافدين سيصبح أمراً واقعاً ممهوراً بختم الشرعية الدولية وبختم القوى المحلية التي ستحل محل الأمريكيين فيما لو رحلوا لأننا لم نتمكن ولا مرة حتى الآن من استثمار انتصاراتنا على المستعمر بعد رحيله وقلب معادلاته راساً على عقب بل كرسناها.(١)

وللتوضيح إليكم بعض نتائج الاحتلال التى عانى ويعانى منها أبناء الشعوب التى سبق وأن عانت من نير الاحتلال ٠

زرع خلافات حدودية

فى شمال أفريقيا، يبرز الخلاف الذي لا يكاد يتراجع حتى يعاود الظهور حول مثلث منطقة حلايب بين مصر والسودان، إذ أن الحدود بينهما قائمة على خط العرض الوهمي رقم ٢٢، وبالنسبة للسودان فإن خلافاته الحدودية تتصل بجميع جيرانه وفي بلاد المغرب برزت بعض الخلافات حول واحات صحراوية مع ليبيا، لكن الأمر ظل في إطار نظري وفي تونس، توصلت الحكومة إلى حل نزاع يتعلق بالحدود البحرية مع جارتها الكبرى الجزائر، بعد اتفاق مماثل على الحدود البرية، بانتظار حل مشكلات مماثلة عند الحدود مع ليبيا، علماً أن طرابلس كانت بدورها

قد خاضت حرباً دامية في العقد الثامن من القرن الماضي مع جارتها تشاد بسبب قضية شريط أوزو الحدودي.

١-عن مقال د. فيصل القاسم- ببعض التصرف

أما الوضع الأصعب فكان بين الجزائر والمغرب، بسبب النزاع حول منطقة تندوف وحاسي بيضة، وتطورت الأمور إلى حرب عام ١٩٦٣م استمرت أربعة أشهر، وما زالت ذيولها حتى اليوم على العلاقات بين البلدين بسبب مساندة الجزائر لمنطقة الصحراء الغربية في مطالبها الانفصالية على المغرب، والحدود البرية المغلقة بين الطرفين وفي الصومال الذي يعيش منذ عقود في دائرة الحرب الأهلية فإن لديه صراع حدودي مع كينيا وأثيوبيا ويرى عادل الموساوي أستاذ العلاقات الدولية بجامعة محمد الخامس بالرباط أن مشكلة خلافات الحدود فى العالم العربي إرث ثقيل يرتبط بعوامل تاريخية كثيرة في صلبها تأثير حملات الاحتلال التي قسمت المنطقة إلى كيانات وخلقت بالتالي بؤراً دائمة للتوتر كان من نتائجها هذا الانكشاف المريع للأمن القومي العربي.

وقد بلغت تعقيدات الحدود داخل العالم الإسلامي حداً يدفع المرء إلى اليأس من وجود حلول لها في ظل الأوضاع القائمة ولم تعد فكرة إزالة الحدود وتوحيد الدول مطروحة في أذهان الناس، بل أصبحت مثار استهزاء وسخرية وأصبحت الاتفاقيات بترسيم الحدود هي أفضل الحلول

في عالم الضعفاء، رغم أن ذلك لا يحل المشكلة نهائياً وللأبد بل قد يزيد الشقة بين الإخوة، ويثبت الحواجز بين الأشقاء.

الاستعمار وأثره على الهوية الوطنية

برغم كل محاولات تجميل الصورة التي سعى إليها المحتلون أو المستعمرون يبقى الاستعمار هو الاستعمار مهما تغيرت أشكاله وتعددت ألوانه أو مجالاته و الاستعمار بعد سرقة الثروات يعمل جاهداً على ترك مفاهيم ملغومة بالتبعية والانصياع لأفكاره مستوياته.. مفهومه واحد وإن تعددت مغازيه وتنوعت مقاصده..ومهما ترك في البلد المحتل من أصداء تطوره أو نفحات ازدهاره فإنما يكون ذلك لدعم بقائه وتمكن أفراده من العيش فيما يشابه المكان الذي جاؤوا منه يقول الدكتور أحمد عبدالله الصعدي بجامعة صنعاء وعلاقة الاستعمار بالهوية الوطنية للبلد المحتل علاقة قديمة قدم الاستعمار نفسه وأفضل من عبر عن جوهر هذه العلاقة هو المفكر السياسي الإيطالي ميكيافيللي في القرن السادس عشر فقد نصح الأمير الذي يحتل أي بلد لكي يستطيع أن يستمر في احتلال هذا البلد والسيطرة عليه يجب أولاً أن يعمد إلى الرموز التي تشد أبناء هذا البلد إلى بلدهم وتشعرهم بالانتماء والوحدة فيزيلها ويقضي عليها ويكون بهذا قد قطع أول جذور ارتباطهم بأوطانهم واستقلالهم وهويتهم

وقد قدمت عدة دراسات معاصرة في هذا الموضوع وأجمعت بشكل تقريبي على أن الهوية الوطنية للبلد المستعمر أول أهداف الاستعمار حتى إن فيلسوفا روسيا اسمه سلافيوف ميز بين نوعين من الاستعمار حيث قال إن الاحتلال الألماني يعمل على محو الهوية الوطنية للبلد المحتل من خلال محاولته محو اللغة وأما الاستعمار البريطاني بحكم أن بريطانيا تسود فيها الفلسفة التجريبية يهمه إخضاع الناس والسيطرة عليهم من خلال محو هوية الانتماء للوطن الأم والاندماج مع الاستعمار باعتباره أقوى وأنفع للحياة ولا يعمد إلى طمس الهوية بالنسبة لجوانبها الأخرى.

وبعيداً عن هذا فالاستعمار أيا كان يترك تأثير كبير في تفكير الناس وطريقة حياتهم وفي معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتختلف فقط نسبة هذا التأثير من بلد إلى آخر حسب قابليته للتأثير فما حدث مثلاً في بلاد المغرب العربي لم يحدث بنفس الدرجة في جنوب الوطن سابقاً وهذا راجع لمدى قابلية الشعوب للاندماج مع هوية المحتل وهي ما سماها المفكر الجزائري الكبير القابلية للاستعمار ويعتبر اليابانيون والصينيون أكثر الشعوب تمسكاً بهوياتهم الوطنية وإذا ماجئنا إلى وضع اليمن في عهد الاحتلال البريطاني فالكل يلحظ التأثير الذي تركه في عدن على سبيل المثال، فقد غدت عدن مدينة مفتوحة أي مدينة عالمية حيث تعايش فيها الناس من ذوي الجذور القوميات المختلفة وبطبيعة الحال

كل مستعمر له هويته الخاصة وعندما يقوم باحتلال بلد ما فسيؤثر حتماً على هذا المجتمع أفراداً أو جماعات ولأنه يسوق هويته بشكل طبيعي من خلال كل تصرفات أفراده وسلوكهم فهو بالتالي سيؤثر شئنا أم أبينا على الهوية الوطنية للبلد الذي يحتله سلباً أو إيجاباً وسيحاول جاهداً مسخها وإتلاف مكوناتها جزئياً أو كلياً إن استطاع حتى يتمكن من أن يجعل الشعب المحتل نسخة من هويته وتقليداً صارخاً أو مسخاً له. ولأننا بطبيعة الحال لا نستطيع أن نكون أشخاصاً آخرين غير أنفسنا لذلك نغدو كالمسخ بلا هوية أو ملامح واضحة متى ما تخلينا عن هويتنا وما يميزنا غيرنا.

وبرغم أن الاستعمار قد يجلب وهو يفرض سيطرته على البلد المحتل بعض ظلال التطور الذي يعيشه في يلده كنتيجة طبيعية لصورة الحياة التي وصل إليها لكنه بالتالي لا يسمح بوصول هذا التطور إلى غير المكان الذي هو حدود سيطرته حتى لا يتمكن الشعب من الاستفادة مما يقدمه استفادة كاملة استقلال كل البلدان التي تحت سيطرته

تمزيق المسلمين

حصلت الأقطار العربية على استقلالها نتيجة لضغط الحركة الوطنية والنضال المتواصل من أجل الاستقلال وأدى التعدد والتنوع في حركات التحرر إلى تعدد وتنوع في القيم والاتجاهات السياسية؛ فقد ظهرت قيم

سياسية محلية خاصة بكل قُطر ، وساد تيار الوطنية الإقليمية ولا شك أن القوى الاستعمارية كانت هي المستفيدة من استمرار هذه التجزئة؛ ولذلك فقد حرصت منذ أيام محمد علي باشا على منع قيام دولة قوية في هذا الجزء من العالم، كما حرصت دوماً على استمرار تبعية الأقطار العربية اقتصاديًا وثقافيًا، بما يقلل من أهمية الاستقلال السياسي.

وبالوصول إلى شمال أفريقيا، يبرز الخلاف الذي لا يكاد يتراجع حتى يعاود الظهور حول مثلث منطقة حلايب بين مصر والسودان،إذ إن الحدود بينهما قائمة على خط العرض الوهمي رقم ٢٢وبالنسبة للسودان فإن خلافات الحدود تتصل بجميع جيرانه وفي بلاد المغرب برزت بعض الخلافات حول واحات صحراوية مع ليبيا، لكن الأمر ظل في إطار نظري وفي تونس،توصلت الحكومة إلى حل نزاع يتعلق بالحدود البحرية مع الجارة الكبرى الجزائر، بعد اتفاق مماثل على الحدود البرية، بانتظار حل مشكلات مماثلة عند الحدود مع ليبيا، علماً أن طرابلس كانت بدورها قد خاضت حرباً دامية في العقد الثامن من القرن الماضي مع جارتها تشاد على خلفية قضية شريط أوزو الحدودي.

أما الوضع الأصعب فكان بين الجزائر والمغرب، بسبب النزاع حول منطقة تندوف وحاسي بيضة، وتطورت الأمور إلى حرب عام ١٩٦٣م استمرت أربعة أشهر،وما زالت ذيولها حتى اليوم على العلاقات بين

البلدين بسبب مساندة الجزائر لمنطقة الصحراء الغربية في مطالبها الانفصالية على المغرب، والحدود البرية المغلقة بين الطرفين وفي الصومال الذي يعيش منذ عقود في دائرة الحرب الأهلية فإن لديه صراع حدودي مع كينيا وأثيوبيا.

ان مشكلة خلافات الحدود فى العالم العربي إرث ثقيل يرتبط بعوامل تاريخية كثيرة في صلبها تأثير الحملات الاستعمارية التي قسمت المنطقة إلى كيانات وخلقت بالتالي بؤرا دائمة للتوتر كان من نتائجها هذا الانكشاف المريع للأمن القومي العربي وعلى غرار مشكلات الحدود في المشرق، فان استمرار الخلاف على الحدود في منطقة المغرب العربي يشكل أكبر معطل لمسيرة الاتحاد المغربي ومشاريع التعاون التي يتوقف عليها مصير شعوب المنطقة وشهدت أفريقيا مع إشراقة العصور الحديثة موجة من الصراع الاستعماري بعد خروج المسلمين من الأندلس وسقوط آخر معقل لهم في غرناطة عام ١٤٩٢م.

هلاك الحرث والنسل

ومن نتائج الاحتلال الأوروبي التجارب النووية التي نفذتها فرنسا في بلاد الجزائر،فقد نشرت جريدة لوباريزيان الباريسية في فبراير ٢٠١٠م - تقريراً عسكرياً فرنسياً أشارت فيه إلى أنه تم تعريض الجنود الفرنسيين وأسرى التحرير وسكان مناطق الصحراء في جنوب الجزائر

بداية الستينات لتجارب نووية تهدف إلى دراسة انعكاسات السلاح النووي الجسدية والنفسية على الإنسان ومن بين التجارب التي كشفت عنها الصحيفة تلك التي جرت في منطقة الحمودية صباح يوم الثالث عشر من فبراير عام ١٩٦٠م حيث استيقظ سكان المنطقة على وقع انفجاراتٍ ضخمةٍ تبينَ فيما بعد أنها تفجيرات نووية تجريبيةٌ عُرفتْ بالجربوع الأزرق وخلال تلك التجارب تحولَ سكانُ المدينةِ البالغُ عددُهم نحوَ اثنين وأربعينَ شخصاً، بالإضافةِ إلى بعضِ أسرى التحرير وجنودٍ فرنسيين، إلى فئران تجاربَ لخبراءِ التفجيراتِ النووية.

وأجرت فرنسا تجارب نووية في الجزائر في الفترة من عام ١٩٦٠م حتى عام ١٩٦٦م،ثم في بولينيزيا الفرنسية في المحيط الهادي من العام ١٩٦٦م حتى عام ١٩٩٦م،وبلغ العدد الإجمالي للتجارب النووية الفرنسية ٢١٠ تجارب ورفضت فرنسا طويلاً الاعتراف رسمياً بالصلة بين الاختبارات النووية التي أنهتها عام ١٩٩٦م ومشاكل صحية شكا منها أفراد عسكريون ومدنيون شاركوا في هذه الاختبارات.

ويقول بيير لوروا أحد الخبراء المشاركين في التفجيرات في تقرير لقناة العربية -: تم تفجير أربع قنابل نووية باسم الجربوع الأزرق والأبيض والأحمر وهي ألوان العلم الفرنسي، وأنا كنت شاهداً على هذه التفجيرات الضخمة والمشعة وللأسف أثرت علينا جميعاً ومازلنا نعاني.

أما بيير جامية أحد المهندسين النوويين المشاركين في التفجيرات فيقول شاركت في أول تفجير في الصحراء وذهبت بعدها لدراسة آثار التفجيرات على البشر والأرض ووثقت ذلك بالصورة والصوت،ولو عاد الزمن لرفضت هذا العمل غير الإنساني وجريدة لوباريزيان الفرنسية أكدَتْ أنَ عددَ التجاربِ النووية الفرنسية في الجزائر وبعضِ المستعمراتِ الفرنسيةِ بلغَ بينَ عاميْ ١٩٦٠م إلى ١٩٦٦م ٢١٠ تجاربَ نوويةٍ، بعضُها تحتَ الأرضِ والآخرُ فوقَ سطحِ الماء.

وفي نوفمبر ٢٠٠٩م دعا وزير المجاهدين الجزائري الحكومة الفرنسية إلى تسوية الملفات المعلقة بين البلدين، تمهيداً لتطبيع العلاقات المتوترة منذ خروج الاحتلال الفرنسي من الجزائر عام ١٩٦٢م وجاءت الدعوة الجزائرية بمناسبة احتفال الجزائر بمرور ٥٥ سنة على اندلاع ثورة التحرير ١٩٥٤م - ١٩٦٢م وقال وزير المجاهدين الجزائري في تصريحات صحفية ان اعتراف فرنسا بالجرائم التي ارتكبتها خلال استعمار الجزائر ١٨٣٠م - ١٩٦٢م، هو أمر مطلوب بحدة ومفروغ منه بالنسبة إلينا وشكا أفراد شاركوا في التجارب الفرنسية وأيضاً سكان المناطق التي أجريت فيها هذه التجارب طويلاً من عواقب صحية، منها الإصابة بسرطان الدم (لوكيميا) وأنواع أخرى من السرطان وشهدت ساحات المحاكم العديد من القضايا.

أثر الاحتلال على الأدب فى المستعمرات

كان من شأن خطاب الاستعمار التعبير عن توجهاته إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب، كما كان من شأنه إنزال حملاته العسكرية منزلة تاريخية في آفاق تجمع ما بين الخمول والعجب، وتختزل الوجهات الحقيقية لهذه الحملات، زاعمة أن القدر أرسلها للنهوض بعالم ساكن من خموله الأدبي ومن ثم أصبحت هذه المناطق المستعمرة مجرد خلفية لمسرح تجري عليه أفعال غربية، مارست أفظع أنواع القرصنة المعتمدة على السلب والنهب والقتل والاقتلاع من الجذور، كما عملت على عزل أهل هذه المناطق عن مجموعاتهم اللغوية هذه التصورات كانت لها تجلياتها في كتاب وصف مصر، في هذا الكتاب يتم استبعاد مصر الحقيقية، لتصبح مجرد خلفية لمسرح تقع عليه أفعال بطولة غربية، يمثل نابليون الدور الرئيسي فيها، وكأن الأمر استعارة من أدب الرحلات التي تمت آنذاك بفعل موجات استشراق [1] وقد جاءت دراسات ما بعد الاستعمار لتنتظم باعتبارها مؤسسة فاعلة في الكتابة، ومروجة لأفكار معينة، عبر مشروع يتبنى حالات كتابة، تنحو إلى تفكيك

١- السردية العربية الحديثة -عبد الله إبراهيم والحملة الفرنسية - هنري لورنس مصر ص٧.

خطاب الاستعمار، وإلى إعادة النظر في تاريخ آداب الإمبراطوريات السابقة، بحيث تشمل المستعمرات التي واجهت الاحتلال الأوروبي، بما تركه من آثار مختلفة وهي هذه المستعمرات على الرغم من القوميات المختلفة التي تمثلها، فإنها أنتجت نوعاً من الكتابة يحمل حسب الخطاب النقدي المعني بالاحتلال وما بعده قواسم مشتركة إلا أنها في مجملها آدابٌ أعادت كتابة تاريخ حضارة الاستعمارنفسها من وجهة نظر المستَعْمَرين[1] وأصبح مصطلحُ ما بعدَ الاحتلال تسمية لنظرية في الدراسات الثقافية والنقد الأدبي وقد وجَّهت هذه الدراسات الفعل الثقافي باتجاه حق الجميع في أن يكون لهم شأن ومكانة وفضلاً عن أنّ هذا النوع من الدراسات ينطلق من الإحساس بضرورة تحديد معايير واقع الشقاء والظلم البشريين، فإنّه يقتضي انحيازاً إلى صفوف الضعفاء، ورفضاً لجميع الأقوال الجاهزة المبتذلة ولعلّ هذا النوع من الدراسات يبدي استعداداً واضحاً للإعلان عن رفض أفكار السلطة، فيأتي السؤال الثقافي ليتيح انعتاقاً معنوياً من هذه الأفكار،وذلك عبر استراتيجيات وأدوات تُفعِّل الوعي على صعيد الأفراد والجماعات ويرى إدوارد سعيد لزوم اقتفاء الأثر السياسي للكتابة،

١- الإمبراطورية ترد بالكتابة - بيل أشكروفت، وآخرون ترجمة وتقديم خيري دومة ص٧-٩

عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص حادث ثقافي لا بد من ربطه بمظاهر السياسة والاجتماع والثقافة فهو في رأيه غير مقنع بحال من الأحوال، ويشير إلى نوع من التحليل ينطلق من فرض أن الاحتلال التقليدي قد انتهى، وأن مرحلة من الهيمنة قد حلت، وخلقت ظروفاً مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع معين، علماً أن البعض يرى أن الخطاب الاستعماري ما زال قائماً.

الهوية الحضارية

تقودنا مسألة الخلاف إلى مسألة الهوية والقلق إزاءها فإذا كان من جماليات أن تكون حاكماً ألا تشعُر بالقلق إزاء هويتك، فإن من سيئات أن تكون محكوماً أنك تقلق إزاء هذه الهوية وإذا كان من جماليات أن تكون حاكماً أيضاً، أنك لن تخضع لثقافة متعالية، تحدد ما ينبغي أن يعد ثقافة بمعاييرها هي، فإن من سيئات أن تكون محكوماً أن يقال لك إن الوصاية عليك أمر مشروع بالاستناد إلى قاعدة تنوير الشعوب، ونقلها إلى مستوى الحضارة الأوروبية والأسوأ من ذلك كله أن ترى المستعمر نفسه وقد تبنى وجهات نظر الإمبريالية التي تدفعه إلى احتقار ثقافته الخاصة، بل قد يصل إلى مرحلة من الاستلاب تدفعه إلى حيل وممارسات الاحتلال نفسه، بحيث يطبقها بلا هوادة على أبناء شعبه، لذلك نجد سعيد في الثقافة والإمبريالية يعيد نقد فرنز فانون للمستعمِر وللمستعمَر أيضاً، حين دعا إلى إبقاء عين النقد مفتوحة، في إطار مهمة تصويب، تنصب في عدم مجاملة كل من ينزلق في مسار المستعمر[1] يقول في هذا

الكتاب: إن المستعمرين الحقيقيين لا يعطون فرصة لأهالي البلاد لحكم أنفسهم، ولكن كيف يمكن لأهل البلاد أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم في المستقبل، وهم في الحاضر لا يملكون من أمرهم شيئا؟.

يقدم بعض الأفارقة المعنيين في هذا الشأن بحوثاً خاصة تدعم وتؤكد الحاجة لرؤية أدب أفريقي خالص معني بالهوية الأفريقية، له علاقة مباشرة بالمجتمع الذي أنتجه، ومن هذا المنطلق يؤكد إشيبي سمة أساسية تميز الفنانين الأفارقة عن زملائهم الأوروبيين، وهي إعلاء شأن الوظيفة الاجتماعية للكتابة، أكثر من وظيفتها بوصفها أداة للتعبير الفردي، ونجد من النقاد الأفارقة من يؤكد وجود سمات مميزة واضحة للفكر الأسود والعاطفة السوداء.

<u>الرواية والاستعمار</u>

يرى كثيرون أن الرواية قد نجحت خلال مدة وجيزة في انتزاع الاهتمام، وأنها استأثرت بالمكانة الأولى في الآداب العالمية، وفي الأدب العربي، ويردون ذلك إلى قدراتها الفائقة في تطوير وسائل السرد، إضافة إلى قدرات متميزة في تمثيل المراجع الثقافية والنفسية والاجتماعية، وهو أمر تفوقت به على الأنواع الأدبية الأخرى المعاصرة لها[1].

١- مفارقة الهوية - بال أهلواليا- ترجمة، سهيل نجم- ص١٢٦

يمكن اعتبار الرواية إذا ما قرئت القراءة الصحيحة عاملاً من عوامل صوغ الهويات الثقافية للأمم، لما لها من قدرة على تشكيل التصورات العامة عن الشعوب والحقب التاريخية والتحولات الثقافية للمجتمعات بما يترتب على هذا الأمر من إسهام في تمثيل التصورات الكبرى عن الذات والآخر فالرواية البريطانية كما قرأها إدوارد سعيد كانت مركزاً إمبريالياً وظيفته الحفاظ على مكانة الإمبراطورية والمساهمة في تعزيز المفاهيم والمواقف حول العالم ونستطيع بكل ثقة القول أن الرواية بدخولها عوالم بعيدة وغريبة استجابت لرغبات المجتمع البرجوازي، الذي حمل تطلعات استعمارية، لذلك فإن ما أفرزته الرواية هو جزء من سياق ثقافي بحث عن أفضل وسيلة تمثيلية، لبيان فلسفة التفاضل بشكل رمزي وإيحائي وغير مباشر بين الغربي وغيره[1] وأفضل مثال يشار إليه في هذا السياق رواية روبنسن كروزو لدانيال ديفو التي اعتبرت إحدى النماذج المبكرة للرواية الغربية الحديثة.

تدور أحداث رواية روبنسن كروزو المنشورة عام ١٧١٩، حول أوروبي يخلق لنفسه مستعمرة على جزيرة غير أوروبية نائية، وتعبر في أحداثها عن طبيعة التوسعات الاستعمارية بصورة تتراوح بين المباشرة والتضمين، فالبطل ينطلق من مرجع أوروبي ترى أن العالم الغربي هو النموذج الكفء للعالم المتحضر، لذلك لا بد من اتباعه وتمثل أخلاقياته الدينية، فهو العالم الذي يبشر بفكرة قوة الفرد المتحضر، في

١- مصدر سابق٦٨-٧٠

عالم يبقى منسياً إذا لم يلحق بالتاريخ الذي يمثّله الرجل الأبيض، والبطل إذ ترك العالم المتحضر، فإنه بقي يحمل قيمه وأفكاره، وعليه أن يحول الجزيرة النائية إلى وطن خاص به، يتمثل القيم التي حملها معه الأمر الذي يتماشى مع الفكر الشائع للحملات الاستيطانية وراء البحار ولكي يتمكن البطل من هدم نسق ثقافي وزرع نسق آخر، كان لا بدّ له من إخضاع الطبيعة لإرادته ترويض الطبيعة والحياة، وإخضاعهما للثقافة كان لا بدّ من ظهور شخصية فريدي لإظهار هدف التحويل الذي يرتضيه، فيخلع الأبيض على الملون اسماً مشتقاً من الذاكرة الغربية، فالملون يعرف بهذه التسمية، وهو كذلك يتلقى المثل والقيم والأفكار التي تجعله تابعاً من الطراز الأول، لذلك لم يكن غريباً أن يعلمه أول عبارة بالإنجليزية نعم سيدي Yes sir، وكأن المطلوب من الأبيض أن يخرج الآخر المنسي من وحشيّته، ويدرجه في سياق الكينونة البشرية الحقيقية التي وضعها الأبيض وحين ينجح الأبيض في العودة إلى بلاده يترك أرضاً مأهولة وإنساناً له تاريخ ولغة وعقيدة، ويظل اتصال كروزو عبر البحار قائماً بالمكان الذي قام ببنائه، والإنسان الذي أعاد تكوينه، وهنا يظهر المغزى الكبير في دلالة واضحة على فكرة المستعمرات التي تحيا من خلال إرتباطها بما وراء البحار بالإمبراطورية.

كثيرة هي المواقف التي تنبئ عن كفاءة استثنائية للقيم الغربية، مقابل قصور استثنائي لقيم الملونين، فالأبيض هو حامل الخير المطلق،

وعليه تقع مهمة ترحيل هذا الخير إلى عالم الشر الأسود الوحشي، حتى حين يتم تكييف هذا الأسود وإخضاعه للمنظومة الغربية، يصبح من غير الممكن السماح له بالاستقلال وبصياغة الحرية الخاصة به، وإنما عليه أن يستمر في خدمة السيد، وعليه أن يبقى تابعاً له.

اللغة والاحتلال

الكتابة بلغة الآخر، موضوع جدلي أعاده إلى واجهة الحوار الثقافي مؤخراً رحيل الشاعر المارتينيكي إيمي سيزار عام ٢٠٠٨، وهو الأديب الذي قال ليس لدي مشكلة في الكتابة بالفرنسية، وليس هذا ما أردته، ولكن الذي حدث أن اللغة التي كتبت بها هي اللغة التي تعلمتها بالمدرسة،على الرغم من استمراره في التأكيد على الخصوصية وعلى الحصانة الثقافية، فهو من أطلق مصطلح الزنوجة، ودافع عنه وكرّسه، وهو القائل ليس ثمة استعمار بريء.

الكثير من الكتاب يبررون كتابتهم بلغة الآخر بقولهم إن جميع البلدان تحولت إلى مجتمعات ذات طابع أممي، حتى إن إنيتا ديساي الهندية التي تكتب بالإنجليزية نجدها وقد أطلقت فكرة مثيرة للجدل، مستفيدة من التعدد اللغوي الهائل في بلادها، فتجعل من الإنجليزية المحلية لغة أخرى تضاف إلى اللغات الهندية، كذلك يرى الطاهر بن جلون أن الانفتاح على الثقافة الفرنسية لا يعني فقداناً للهوية، ويرى الأسباني خوان جويتسولو

أن كتاب المغرب الذين يكتبون بالفرنسية، يعملون على صعيد المعنى بمعزل عن روح اللغة الفرنسية التي يكتبون بها وفي المقابل نرى من يخالف هذا المنهج، ويرى أن مناقشة كتابة ما بعد الاحتلال هي بشكل عام مناقشة للعملية التي يتم بها تحريف اللغة بما لها من قوة، وتحريف الكتابة بما تحتويه من دلالة على السلطة، وإبعادها عن الثقافة الأوروبية المهيمنة، وقد يكون المطلوب أحياناً إلغاء مكانة الإنجليزية أو التنكر لها، وهو ما ينطوي على رفض لسيطرة القوة الإمبريالية، ومعاييرها الموهومة، فيما يمكن أن يطلق عليه عملية الاستحواذ وهي العملية التي يتم بها أخذ اللغة وتهيئتها لكي تحمل التجربة الثقافية الخاصة لشخص ما، وبالتالي نكون أمام نزع الطابع الاستعماري عن اللغة والكتابة الأجنبية.

ويمكن القول أن دراسة الإنجليزية، وتنامي الإمبراطورية قد تطورا في مناخ أيديولوجي واحد، وأن تطور أحدهما كان محكوماً في جوهره بتطور الآخر، على مستوى واع دعائي يبرز الوحشية والبدائية باعتبارها قيماً تستدعي الإصلاح، فهناك ربط واضح بين المرحلة التاريخية التي شهدت ظهور الإنجليزية علماً أكاديمياً وتلك التي أنتجت الشكل الاستعماري من الإمبريالية في القرن التاسع عشر، فالإدارة الاستعمارية البريطانية بمساندة بعثات التبشير اكتشفت في الأدب الإنجليزي حليفاً يعينها على قمع التمرد، وعلى السيطرة على الشعوب

الأصلية، وذلك تحت مسمى التعليم الليبرالي([1]).

لذلك ظهرت رغبات في استخدام الإنجليزية بطرق مغايرة، أبرزها محاولات الفرار من قيم الإنجليزية الجمالية والاجتماعية، بتطوير استخدام ملائم، أو انزياح لغوي عن إنجليزية رسمية أو معيارية، وهو ما فعله الكاتب النيجيري تشينو أتشيبي، وحذا حذوه الكاتب الهندي راجاراد

التبعية الفكرية للمحتل

قد يكون من السذاجة وتسطيح الأمور اعتقاد أن الاحتلال شكل واحد يتمثل في غزو دولة لأخرى بالعتاد والسلاح ،والتحكم في خيراتها ومقدراتها عن طريق القوة العسكرية،قد يكون هذا هو الشكل الأقدم لأنماط الاستعمار، غير أنه يبقى الأيسر لأن شكل وطريقة مقاومته من الأمور الميسرة الواضحة، لكن أخطر أنواع الاحتلال هو الاحتلال الفكري وهو وليد الاحتلال العسكري، هذا النوع يعد الأخطر لأنه استعمار خفي، وآثاره مدمرة، فهو أشبه بمرض فقدان المناعة الذي يحطم دفاعات الجسم ويجعله عرضة لكل أنواع الأمراض الانتهازية.

ومن تجليات التبعية الفكرية ما تحظى به اللغة الفرنسية من مكانة

١- مصدر سابق ص٣١، ٦٧.

تنافس اللغتين الوطنيتين العربية والأمازيجية، تصل إلى حد ازدرائهما و التقليل من قيمتهما في كثير من شؤون الدولة، لاسيما الاقتصادية، فمن المستحيل أن تجد ورقة واحدة لها ارتباط بالمال والاقتصاد مكتوبة بالعربية، أو أن تلج إدارة من تلك الإدارات وتستقبل بلسان عربي، فلا شيء غير لغة موليير، قد يكون هذا الأمر مفهوماً إذا استحضرنا شروط إكس ليبان، التي بموجبها حصلنا على هذا النوع من التسيير الذاتي لشؤون البلاد غير أن هناك قطاعات حساسة جدا مثل قطاع التربية والتعليم لم يسلم هو الآخر من تغول الفرنسية،هذا القطاع الذي من المفترض أن يكون حصنا منيعا للقيم والهوية غير أن مظاهر الاستلاب تتجاوز ما هو قسري إلى ما هو إرادي، حيث يقدم المرء على احتقار ذاته وازدرائها دون أن يرف له جفن، أو يشعر بأدنى خجل.

تدمير الثقافة الإسلامية

من الصعب أن نحدد متى بدأت اللغة العربية تنتشر في أفريقيا، خاصة غربها، ونستطيع أن نؤكد أن انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في أفريقيا واكب انتشار الإسلام، فهما متلازمان حيثما دخل الإسلام تدخل معه اللغة العربية، ولا يكاد الإسلام يستقر في مدينة أو قرية حتى يفتح الدعاة أو التجار مدرسة لتعليم القرآن الكريم ومبادي الدين واللغة العربية التي لا يفهم الإسلام فهماً صحيحاً بدونها وكذلك كان للحج دور

كبير في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى القارة، مما ساعد على انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وأصبح الحرف العربي هو الحرف الذي يكتب به أشهر اللغات الأفريقية، مثل الهوسا والسواحلية، وأصبحت المنطقة بسبب الإسلام ولغته عظيمة الحضارة والتقدم، وسرعان ما شكل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم حتى صار مستوى التفكير والثقافة في غرب أفريقيا يقارن بنظائره أو يفوقه في الدول المعاصرة لها في تلك الفترة في أوربا وغيرها من الدول،وهذا يؤكد مدي انتشار الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا وبدأت أقدام الأوربيين تطأ أراضي أفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي أما المرحلة الثانية، فتبدأ بعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤-١٨٨٥م الذي خُطط فيه لاحتلال القارة الأفريقية، وقد أصبحت أفريقيا عامة، وغربها خاصة موزعة على الدول الأوربية، ولكن لم يكن الطريق سهلاً ، لأن توغل الجيش الفرنسي ، قوبل بمقاومة شجاعة من زعماء الإسلام

والناظر في الثقافة العربية الإسلامية في غرب أفريقيا يجد أن خير مقاييس لها هي: عدد العلماء، عدد الطلاب وتنوع أماكن التعليم، حركة التمدن، الكتب الواردة، والمكتبات الخاصة ودرجة اتساع التأليف والثقافة الإسلامية لم يصبها الضعف إلا عندما خضعت القارة الأفريقية للاستعمار الأوربي، وفرض كل مستعمر لغته في الإدارة والتعليم، غير

أن لغة المستعمر ظلت في الغالب لغة التفاهم والتواصل بين الصفوة المتعلمة تعليماً غربياً على اختلاف لغاتها الأصلية، ولكن العامة في كل قطر ظلت تستعمل اللغات المحلية في أغلب الأحيان، وهي لغات متأثرة بالعربية تأثيراً كبيراً بسبب غلبة الثقافة العربية الإسلامية في مجتمعات غرب أفريقيا ولما احتلت فرنسا المنطقة في بدايات القرن العشرين حاربت الحرف العربي حرباً لا هوادة فيها وأحلت محل الحرف العربي الحرف اللاتيني، وحاربت كذلك اللغة العربية والثقافة الإسلامية السائدة في المجتمع، واتبعوا في محاربتها أساليب متنوعة، والسياسة الاستعمارية الفرنسية بنيت على بعض المبادئ البراقة في مظهرها التي أعلنتها الثورة الفرنسية حيث استند الفرنسيون على أن جميع سكان المستعمرات يجب أن يكونوا مواطنين فرنسيين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات،والمقصود صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق ثقافة الفرنسيين المستعمرين، ولغتهم وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية حتى يصبح تفكيرهم واتجاههم في مختلف نواحي الحياة كالفرنسيين وهذا يتطلب بالطبع قطع كل صلة للأفريقي المسلم بتاريخه الإسلامي وحضارته الإسلامية بمختلف مظاهرها ومقوماتها ولما هيمنت فرنسا على أفريقيا ووجدت أن اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، فكثفت سلطات الاحتلال جهودها

لاستئصال اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا الفرنسية واستخدمت لذلك كل الوسائل المتوفرة لديها ومن ذلك:

ـ فرض قيود صارمة على استيراد الكتب العربية من البلدان العربية، حتى الحجاج منعوا من حمل الكتب الدينية والعربية معهم عند رجوعهم من الحج.

ـ تشديد الرقابة على كل المطبوعات العربية سواء أرسلت بالبريد أو بغيره.

ـ إحصاء كتب العلماء وحصرها وفرض رقابة عليها .

ـ مراقبة المؤسسات الدينية الإسلامية وحددوا نطاق إنشاء المساجد فكانت لا تسمح ببناء مسجد إلا لأفراد يحظون بثقتهم وهم القلة بطبيعة الحال، وكان الاستعمار يخاف من المسجد خوفه من سائر المؤسسات الإسلامية فبناء المسجد يعتبر وسيلة لتقدم الإسلام ولم يخف فيدرب حاكم أفريقيا الغربية الفرنسية من شئ خوفه من المسجد حيث صرح في عام ١٨٥٥ بذلك وقال إن الإسلام لدى السود أمر معرقِل أمامنا لكن في النهاية إن وُجد المسجد، فلا رجوع لنا بعدئذ.

ـ حظر استعمال العربية في كل المرافق الإدارية والاقتصادية والاجتماعية وكتب وليام بونتي بهذا الخصوص يجب حظر استعمال اللغة العربية ، ليس فقط في تحرير الأحكام القضائية ، ولكن يلزم أيضاً

التوقف عن العمل بها في سائر الأنشطة الإدارية التي تنفع الأهالي فعمدت إلى نشر المدارس الفرنسية في سائر المدن والقرى، وقلصت حصص العربية وتعليم القرآن، ثم حذفتها نهائياً، ووصل الأمر إلى حد منع الفرنسيين الموجودين في المنطقة من مخاطبة السكان بغير اللغة الفرنسية مهما كانت الظروف والملابسات لأنهم كانوا في بداية أمرهم يخاطبون ويراسلون السكان باللغة العربية خاصة العلماء وطلاب العلم.

ـ فرض قيود صارمة على افتتاح مدرسة عربية فأصدرت لذلك قرارات جائرة .

ـ منع المتعلمين من النطق باللغة العربية والتعامل بها بأي شكل من الأشكال، وبلغ من تعنتها أن حاولت استبدال اللغات المحلية في المجالس والمدارس باللغة العربية.

ـ تصيد ضعاف القلوب من سكان المنطقة لتحطيم مقوماتهم الدينية والثقافية بتسهيل سبل العلم والعمل لهم، بقصد اضعاف الثقافة الإسلامية في نفوس الذين يشتغلون بها خاصة ثم في نفوس سكان المنطقة عامة.

ـ أخذ أبناء الشيوخ والأعيان عنوة وإرسالهم إلى مدارسهم وأسسوا لذلك مدرسة الرهائن، ثم إسناد الأمور إليهم بعد تخرجهم، وهم بالطبع سيكونون موالين لهم لثقافتهم الفرنسية.

ـ تأسيس مدارس عربية نظامية عصرية في بعض المدن التي كانت مراكز للثقافة الإسلامية فأسست مدرسة عربية في سان لويس بالسنغال وأخرى في بوتلميت في موريتانيا، وأخرى في تمبكتو في مالي ولما لاحظوا رفض العلماء إرسال أبنائهم إلى مدارسهم حملوهم على التعليم الإجباري وذلك بأخذ أبنائهم في مناطق متعددة وإدخالهم في تلك المدارس، وليحلوا محل آبائهم في تسيير شؤون الكتاتيب بعد تخرجه.

ـ منع الطلبة الأفارقة الذين يريدون مواصلة التعليم في الدول العربية سواء في شمال أفريقيا أو مصر أو الحجاز، من السفر ٠

وظهرت آثار هذه الأساليب على الثقافة الإسلامية بعد فترة وذلك بتناقص عدد المدارس الإسلامية وتلامذتها ومن آثار الاستعمار الفرنسي على الثقافة الإسلامية في المنطقة ركود الأنشطة الفكرية بين صفوف المسلمين وقلة الاهتمام بالتأليف وكتابة المقالات حتى باللغات المحلية فضلا عن العربية، فأصبح الناس لا يستطيعون القيام بالكتابة والتأليف كما كان الأمر قبل الاحتلال وغرس الاحتلال قبل رحيله العداوة للثقافة الإسلامية في نفوس المثقفين بثقافتها، وأبعدوها عن الساحة الفكرية ورفعوا الثقافة الفرنسية، وجعلوا مثقفها هو المثقف الحقيقي، وأما المثقف بالثقافة الإسلامية فيعد بمثابة أمي، ومن هنا أبعدوه عن أية

مشاركة في العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ومكانهم المناسب هو المسجد فقط والثقافة الإسلامية إنما هي وسيلة إلى الشعوذة والدجل.

الآثار السياسية

تميزت الفترة التي تلت استقلال معظم الدول الأفريقية، بظهور نظم الحزب الواحد في الحكم في غالبية دول القارة، فأقل من خمس دول من بين تسع وأربعين دولة مستقلة في القارة هي التي يمكن وصفها فقط بأنها دول متعددة الأحزاب وهذا يعني أن أغلب الدول قد أتبعت نظام الحزب الواحد الذي مكن القيادات الأفريقية من ترسيخ علاقات التسلط والاستبداد، بل أضافت إليها جاهدة أنماط جديدة في سبيل المحافظة على السلطة التي أنتجت في نهاية المطاف أوضاع استبدادية وتسلطية على كافة المستويات، وساد الاعتقاد بأن الدول الأفريقية المستقلة سوف تسير على ذات النهج الذي سارت عليه النظم السياسية الغربية من حيث شكل نظام الحكم، وطبيعة المؤسسات السياسية القائمة التي تتميز بأن مركز الثقل في النظام السياسي يميل لصالح السلطة التشريعية إلى جانب التعدد والتنافس الحزبي وهذا يعود إلى أن الدول الاستعمارية السابقة قد حاولت نقل نظمها السياسية والاقتصادية للمستعمرات السابقة عند الاستقلال، بهدف خلق دويلات تابعة تدور في فلك الدول الاستعمارية

السابقة.

هيمنة نمط الحزب الواحد

وارتبطت الظاهرة الحزبية في أفريقيا جنوب الصحراء بنظام الحزب الواحد أي أنها تدخل في إطار النظم اللاتنافسية، ويعود وجودها إلى أواخر الحقبة الاستعمارية، والسيطرة الأجنبية، ومحاولات التخلص من هذا الوضع، وبناء كيانات جديدة مستقلة، فالنظم الاستعمارية على اختلاف انواعها تركت أثاراً واضحة على سياسات ما بعد الاستقلال في أفريقيا، وبذلك ساهمت فى انتشار نمط الحزب الواحد بشكل أو بآخر ويرى البعض أن نظام الحزب الواحد وريث النظام الاستعماري التسلطي، وربما الاختلاف الوحيد هو أن الأول نظام وطني وليس أجنبي مفروض من جانب المستعمر فالإدارة الاستعمارية عودت شعوب المستعمرات على الطاعة والخضوع لإرادة مفروضة من الخارج مصدرها الحاكم، واستمرت هذه العادة في فترة ما بعد الاستقلال، وإن كان الإداريون الأوروبيون قد حل محلهم إداريون محليون، ويستدل البعض على ذلك بأن إتباع فرنسا للمركزية الشديدة، والسلطة الهيراركية في ظل نظام الحكم المباشر كان وراء انتشار نمط الحزب الواحد، خاصة في المناطق التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي، كما أن التنظيم الداخلي للحزب الواحد قد بني على نفس التقسيمات الإدارية الموروثة عن الحقبة الاستعمارية، وفي ظل الاستعمار

obeikandi.com

البريطاني، فإن وجود حزب قوي تحت رئاسة زعيم مسيطر قوي كان شرطاً أساسياً لمنح الاستقلال للوطنيين وهو ما شجع أحزاب الصفوة التى تعتمد عليها الإدارة الاستعمارية في تنفيذ سياساتها، بحيث يستمر الولاء لها حتى ما بعد الاستقلال، حيث نجد أن النخبة أو الصفوة الجديدة من المثقفين الأفارقة في ظل النظم الاستعمارية كانوا أكثر الفئات تعبئة من الناحية الاجتماعية، ويلاحظ أن الكثير من هؤلاء المثقفين أصبحوا فيما بعد قادة لدولهم، وتأثروا بنمط الحزب الواحد الذي يتناسب مع النزعةالتسلطية التي جبلوا عليها إبان الحقبة الاستعمارية كما تأثرت الأحزاب السياسية الناشئة بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت الحقبة الاستعمارية حيث ظهرت قوى اجتماعية ونخب قوية مرتبطة بالحكم الأجنبي، إلى جانب بروز حركات قومية تحاول تغيير الأوضاع القائمة وتأسيس حكومات وطنية في الدول حديثة الاستقلال على أنقاض الحكم الاستعماري، فأغلب الأحزاب السياسية التي عرفتها الدول الأفريقية نشأت في ظل تدابير دستورية تبلورت إبان الحقبة الاستعمارية، وهذا يعنى أن عمر الأحزاب السياسية الناشئة قصير نسبياً كما ساهم الوجود الأجنبي في تعزيز الحركات القومية التي واجهته، ويخضع الحزب الواحد في أفريقيا لسلطة الزعيم القومي، وهو ذاته رئيس الحزب ورئيس الدولة، وهذا يعني أن الحزب مرتبط مباشرة بسلطة شخص هذا الزعيم وأداته في الحكم يده بدلاً من أن يصبح وسيلة

في إيجاد مؤسسات سياسية قوية، تعكس إرادة جموع الشعب، كما أن قرارات الحزب هي قرارات الرئيس، وهذا يخلق فراغ تنظيمي على المستوى الحزبي، والقضاء على الزعيم يؤدي إلى انهيار المؤسسات القائمة، ولهذا نجد أن أغلب الانقلابات العسكرية خطط لها عندما كان الرئيس خارج البلاد ومن أبرز الأمثلة على ذلك انقلاب عيدي أمين عام ١٩٧١ على الرئيس ميلتون أوبوتي عندما كان الأخير خارج البلاد في مؤتمر للكومنولث، وكذا الحال مع الرئيس نكروما عندما كان في زيارة لبكين والضعف التنظيمي لنظام الحزب الواحد وعجزه عن تحريك الجماهير وتعبئتها، واتجاهها بدلاًمن ذلك للاعتماد على القوة والقمع بصورة متزايدة لتحقيق الطاعة والولاء، والقضاء على المعارضة السياسية أدى إلى ضعف الأحزاب السياسية المسيطرة لتفسح المجال لتنامي سلطة العسكريون والاتجاه نحو عسكرة السلطة.

العسكريون وعسكرة السلطة:-

شهدت أفريقيا جنوب الصحراء خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي تنامي ظاهرة الانقلابات العسكرية وسيطرة العسكريون على السلطة بحيث تلعب المؤسسة العسكرية دوراً سياسياً بارزاً في الحياة السياسية، ويتجلى في أحدى الصور التالية:النفوذ العسكري الذي يمارسه العسكريون في شكل جماعة مصالح، ويوجد هذا النمط في الدول التي تتميز باستقرار ورسوخ التقليد الخاص بالسيطرة المدنية على

القوات المسلحة- المشاركة العسكرية حيث يشارك العسكريون في عملية صنع القرار، وإدارة الهيئات والمؤسسات الهامة في الدولة- سيطرة العسكريون المباشرة على مقاليد العملية السياسية بحيث يتحكمون في عملية توزيع القيم والموارد داخل المجتمع ويرجع تنامي ظاهرة تدخل العسكريين في السياسة إلى الخبرة التاريخية التي تعتبر من أهم عوامل التنشئة المهنية والسياسية والاجتماعية للعسكريين.

obeikandl.com